ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون*

بقلم الدكتور: زغلول النجـار

النص القرآني المعجز جاء في بداية الثلث الأخير من سورة الأنعام، وهي سورة مكية، ومن طوال سور القرآن الكريم إذ يبلغ عدد آياتها(١٦٥) بعد البسملة، وقد سميت بهذا الاسم لتكرار الإشارة فيها إلى الأنعام، ومن خصائص هذه الصورة المباركة أنها نزلت دفعة واحدة.
ويدور المحور الرئيسي للسورة حول عدد من العقائد والتشريعات الإسلامية، وقصص عدد من الأنبياء والمرسلين الذين بعثهم الله تعالى من قبل بعثة خاتمهم " صلى الله عليه وسلم "وبارك عليه وعليهم أجمعين.

وأستكمل هنا مناقشة بقية هذه الآية الكريمة التي يقول فيها ربنا(تبارك وتعالى):

.. ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون.(الأنعام:٩٩).
وقبل الوصول إلى ذلك لابد من استعراض سريع لأقوال عدد من المفسرين القدامى والمعاصرين في شرح دلالة هذا النص القرآني الكريم.

من أقوال المفسرين:

في تفسير هذا النص القرآني الذي يمثل النصف الأخير من الآية رقم(٩٩) من سورة الأنعام.
*** ذكر الطبري(رحمه الله) ما مختصره:(قنوان): جمع قنو وهي: العذوق(دانية) متهدلة قصار قريبة من**

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الأرض.(مشتبها وغير متشابه) ما يشابه ورقه، ويختلف ثمره وطعمه،(وينعه) نضجه وانتهاؤه.

* وذكر ابن كثير(عليه رحمة الله) ما مختصره:(ومن النخل من طلعها قنوان) أي جمع قنو وهي عذوق الرطب، (دانية) أي قريبة من المتناول، كما قال ابن عباس(قنوان دانية) يعني بالقنوان الدانية قصار النخل اللاصقة عذوقها بالأرض رواه ابن جرير.
وقوله تعالى:(وجنات من أعناب) أي ونخرج منه جنات من أعناب، وهذان النوعان هما أشرف الثمار عند أهل الحجاز، وربما كانا خيار الثمار في الدنيا..، وقوله تعالى:(والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه)، قال قتادة وغيره: متشابه في الورق والشكل قريب بعضه من بعض، ومتخالف في الثمار شكلا وطعما وطبعا،(انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه) أي نضجه، ولهذا قال ها هنا:(إن في ذلكم) أيها الناس(لآيات) أي دلالات على كمال قدرة خالق هذه الأشياء وحكمته ورحمته(لقوم يؤمنون) أي يصدقون به ويتبعون رسله.

* وجاء في تفسير الجلالين(رحم الله كاتبيه) ما مختصره:(ومن النخل) خبر، ويبدل منه:(من طلعها) أول ما يخرج منها، والمبتدأ(قنوان) عراجين(دانية) قريب بعضها من بعض(و) أخرجنا به(جنات) بساتين(من أعناب والزيتون والرمان مشتبها) ورقهما، حال(وغير متشابه) ثمرهما(انظروا) يا مخاطبين نظر اعتبار(إلى ثمره) بفتح الثاء والميم وبضمهما، وهو جمع ثمرة..(إذا أثمر) أول ما يبدو كيف هو(و) إلى(ينعه) نضجه إذا أدرك كيف يعود(إن في ذلكم لآيات) دلالات على قدرته تعالى على البعث وغيره(لقوم يؤمنون) خصوا بالذكر لأنهم المنتفعون بها في الإيمان بخلاف الكافرين.
* وذكر صاحب الظلال(رحمه الله تعالى برحمته الواسعة) ما نصه:...(ومن النخل من طلعها قنوان دانية) وقنوان جمع قنو وهو الفرع الصغير، وفي النخلة هو العذق الذي يحمل الثمر، ولفظة(قنوان) ووصفها(دانية) يشتركان في إلقاء ظل لطيف أليف. وظل المشهد كله ظل وديع حبيب..(وجنات من أعناب).. و(والزيتون والرمان). هذا النبات كله بفصائله وسلالاته -(مشتبها وغير متشابه) -(انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه).. انظروا بالحس البصير، والقلب اليقظ.. انظروا إليه في ازدهاره، وازدهائه، عند كمال نضجه، انظروا إليه واستمتعوا بجماله.. لا يقول هنا، كلوا من ثمرة إذا أثمر، ولكن يقول:(انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه) لأن المجال هنا مجال جمال ومتاع، كما أنه مجال تدبر في آيات الله، وبدائع صنعته في مجالي الحياة.(إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون).. فالإيمان هو الذي يفتح القلب، وينير البصيرة، وينبه أجهزة الاستقبال والاستجابة في الفطرة، ويصل الكائن الإنساني بالوجود، ويدعو الوجدان إلى الإيمان بالله خالق الجميع.. وإلا فإن هناك قلوبا مغلقة، وبصائر مطموسة، وفطرا منتكسة، تمر بهذا الإبداع كله، وبهذه الآيات كلها، فلا تحس بها ولا تستجيب (إنما يستجيب الذين يسمعون)، وإنما يدرك هذه الآيات الذين يؤمنون.
* وجاء في صفوة البيان لمعاني القرآن(رحم الله كاتبه) ما نصه:..(ومن النخل من طلعها قنوان دانية) ومن طلع النخل قنوان دانية، والطلع: أول ما يبدو ويخرج من ثمر النخل كالكيزان، وقشره يسمى الكفري، وما في داخله يسمي الاغريض لبياضه، والقنوان: العراجين، جمع قنو وهو العذق، وهو للتمر بمنزلة العنقود للعنب، و(دانية) أي متدلية، أو قريبة من يد المتناول.(وجنات من أعناب) عطف على(نبات)، أي وأخرجنا به جنات كائنة من أعناب(مشتبها وغير متشابه) أي بعضه متشابه، وبعضه غير متشابه في الهيئة واللون والطعم وغير ذلك، مما يدل على كمال قدرة الصانع..(وينعه) أي وانظروا إلى حال نضجه وإدراكه نظر استدلال واستبصار، كيف يعود شيئا قويا بعد الضعف، جامعا لمنافع شتى. مصدر ينعت الثمرة كأينعت، تينع(بفتح النون وكسرها) ينعا وينوعا، إذا نضجت.

* وذكر أصحاب المنتخب في تفسير القرآن الكريم(جزاهم الله خيرا) ما نصه:.. ومن طلع النخل عراجين نخرجها محملة بالثمار سهلة التناول، وأخرجنا كذلك بالماء جنات من الأعناب والزيتون والرمان، ومنها ما هو متماثل الثمر في الشكل وغير متماثل في الطعم والرائحة ونوع الفائدة. انظروا في تدبر واعتبار إلى ثمره حين يثمر، وإلى نضجه كيف تم بعد أطوار مختلفة إن في ذلك لدلائل لقوم ينشدون الحق ويؤمنون به ويذعنون له.
وجاء في تعليق الخبراء بالهامش ما نصه:.. وفي آخر الآية الكريمة قوله تعالى:(انظروا إلى ثمرة إذا أثمر وينعه)، وفي هذه الإشارة سبق لعلم النبات الحديث في ما وصل إليه من الاعتماد في دراسته على مشاهدة الشكل الخارجي لأعضائه كافة في أدواره المختلفة.

من الدلالات العلمية لهذا النص القرآني الكريم

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يقول الحق(تبارك وتعالى) في محكم كتابه: وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه انظروا إلى ثمرة إذا أثمر وينعه إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون(الأنعام:٩٩).
والتسلسل في استعراض الحبوب والثمار في هذه الآية الكريمة يشمل معظم النباتات التي يحتاجها الإنسان في طعامه الأساسي، وتحتاجها أنعامه في علفها.

فالحب المتراكب: يشمل القمح، والشعير، والذرة، والأرز، والشوفان، وغيرها من محاصيل الحبوب والغلال التي تمثل الطعام الأساسي لكل من الإنسان والحيوان. وهذه النباتات تجمع اليوم في رتبة واحدة تعرف باسم النجيليات، وفي عائلة محددة منها تعرف باسم العائلة النجيلية.
والنجيليات تضم أعشابا حولية أو معمرة لها شكل مميز يطلق عليه الشكل النجيلي أي الذي يشبه النجيل، وإن ضمت قليلا من الشجيرات، وأزهارها تلقح بواسطة الرياح. وسيقانها غالبا أسطوانية، جوفاء، فيما عدا القليل منها مثل الذرة الذي يتميز بساق أصم.

ويضم القمح عددا من الأصناف المميزة منها البلدي، والهندي، الدكر، وكذلك يوجد من الشعير أصناف عديدة منها البلدي، والنبوي، والتونسي، ويوجد من الذرة البلدي، والبدري، والسبعيني، والأمريكي، والصواني، والسكري، والمتبلور وغيرها، ومن الأرز المزروع يوجد حوالي١٨ نوعا كلها من النباتات البرية، ومن نوع الأرز المزروع يوجد حوالي الألف صنف منها الأرز الياباني، والسلطاني، والشعبي، والفينو وغيرها.
ويحل الأرز محل القمح في كثير من الأقاليم الحارة، ويعتبر غذاء لا غنى عنه لأكثر من نصف سكان الأرض.

وينطوي في العائلة النجيلية أكثر من(٤٥٠) جنسا من أجناس النباتات النجيلية، وأكثر من(٤٥٠٠) نوع من أنواعها، وعشرات الآلاف من الأصناف، ولذلك تعتبر من أهم عائلات النبات من الوجهة الاقتصادية لاحتوائها على النباتات المنتجة لمحاصيل الغلال ذات الحبوب المتراكبة(في السنابل)، وعلى غيرها من المحاصيل الاقتصادية مثل قصب السكر، والغاب، والأعشاب الطبية، وحشائش الرعي.
والحبوب المتراكبة في العائلة النجيلية هي من ذوات الفلقة الواحدة، وكما خلق الله(تعالى) تلك الحبوب التي تمثل المحاصيل الأساسية لغذاء مختلف شعوب الأرض، خلق لنا حبوبا أخرى غير متراكبة ذات فلقتين توجد ثمارها في قرون بدلا من السنابل ولذا توضع في عائلة من عائلات النبات تعرف باسم العائلة القرنية تضم حوالي(٦٠٠) جنس و(١٢ ألف نوع) ومئات الآلاف من الأصناف، ومن أهم محاصيلها الفول، الحمص، العدس، الفاصوليا، اللوبيا، البازلاء، فول الصويا، الفول السوداني، الترمس، الحلبة، والبرسيم.

وتعتبر نباتات العائلة القرنية من أهم النباتات الاقتصادية كذلك، وذلك لغناء بذورها بالكربوهيدرات(مثل النشا)، والبروتينات(مثل الزيوت والدهون النباتية).
وتلي رتبة النجيليات مباشرة في تقسيمات النبات رتبة النخيليات التي تشمل عائلة واحدة هي عائلة النخيليات، وتضم أشجارا نخيلية، غير متفرعة ٠ فيما عدا نخيل الدوم الذي تتفرع فيه النخلة إلى فرعين). وتتميز النخيل عامة بأنها أشجار دائمة الخضرة، وبأن لها سيقانا أسطوانية الشكل، ذات سلميات طويلة، ومغطاة بقواعد الأوراق، ولها جذور ليفية.

وتضم(العائلة النخيلية) أكثر من(٢٠٠) جنس، وما يزيد على(٤٠٠٠) نوع من أشجار النخيل وشجيراته، ويضم نخيل التمر وحده حوالي(١٥) نوعا وأكثر من ألف صنف، ولذلك جاء ذكر النخل في القرآن الكريم عشرين مرة.
ومن نماذج العائلة النخيلية: نخيل التمر، نخيل جوز الهند، نخيل الزيت، ونخيل الخيزران، ونخيل الأريكا، والنخيل الملوكي، وأهمها على الإطلاق نخيل التمر، لأن التمر يعد غذاء كاملا تقريبا للإنسان وذلك لاحتوائه على الكربوهيدرات(السكريات والنشا) والبروتينات(الدهون) والفيتامينات وعلى العديد من الأملاح المعدنية الهامة.

ويلي ذلك في تصنيف النباتات رتبة العنابيات وتضم عائلتين هما العائلة العنابية(وتضم٤٥ جنسا، ٥٥٠ نوعا ومن أمثلتها العناب، والنبق) والعائلة العنبية(وتضم١١ جنسا، ٦٠٠ نوعا تنتشر انتشارا واسعا في الأرض وأهمها العنب) وتتميز هذه العائلة بنباتاتها المتسلقة، وبراعمها الطرفية المحورة إلى محاليق، وجاء ذكر العنب والأعناب في القرآن الكريم إحدى عشرة مرة لأهميتها الغذائية الغالية.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ويلي ذلك في تصنيف النباتات رتبة الملتفات وتشمل ست عائلات أهمها العائلة الزيتونية وتشمل٢٢ جنسا، ٥٠٠ نوع من الأشجار والشجيرات وبعض المتسلقات أهمها أشجار الزيتون، و هي أشجار معمرة تعيش الواحدة منها إلى أكثر من ألفي سنة، وقد ثبت علميا أن زيت الزيتون يحتوي على أحماض دسمة غير مشبعة، وهي مفيدة في الوقاية من العديد من الأمراض مثل جلطات الدم التي تتسبب في حدوث أمراض الشرايين الاكليلية في القلب، كذلك ثبت علميا أن بزيت الزيتون أكثر من ألف مركب كيميائي منها ما يعدل الكولسترول في أثناء استقلابه في الجسم، ومنها ما ينقص مستوى الكولسترول الضار ويرفع مستوى الكولسترول المفيد، ويشكل زيت الزيتون حوالي ٧٠% من تركيب الثمرة، ويتكون زيت الزيتون من الجليسيريدات والأحماض، بالاضافة إلى ذلك فإن زيت الزيتون يحتوي على البروتينات، والدهون، وعلى نسب متفاوتة من عناصر البوتاسيوم، والكالسيوم، والمغنيسيوم، والفوسفور، والحديد، والنحاس، والكبريت، وغيرها.

ويعطي تناول(١٠٠) جرام من الزيتون حوالي(١٠٣) من السعرات الحرارية ولذلك امتدح خاتم الأنبياء والمرسلين(صلى الله عليه وسلم) كلا من الزيتون وزيته، فقال: ائتدموا بالزيت وادهنوا به، فإنه يخرج من شجرة مباركة أخرجه كل من ابن ماجه، وعبد الرزاق، والحاكم وغيرهم وورد في صحيح الجامع الصغير).
ووصف ابن عباس(رضي الله عنهما) الزيتون بقوله: في الزيتونة منافع، يسرج الزيت، وهو إدام ودهان ودباغ، ووقود يوقد بحطبه وتفله، وليس فيه شيء إلا وفيه منفعة، حتى الرماد يغسل به الابريسم(وهو الحرير)...

وقد أفردت شجرة الزيتون بالذكر في القرآن الكريم سبع مرات لعظيم منافعها، ولقلة ما تحتاجه من رعاية وعناية من الزراع.
ويلي ذلك في تصنيف النباتات رتبة تعرف باسم رتبة المرسينيات تشمل(٣٣) عائلة أهمها العائلة الرمانية التي تشمل أشجارا صغيرة(شجيرات) تضم جنسا واحدا هو الرمان وله نوعان هما الرمان الأولي PunicaProtoponica، والرمان الجرانيتيPunicaGranatum.
وقد جاء ذكر الرمان في القرآن الكريم ثلاث مرات إشارة إلى أهميته في غذاء الإنسان، منها مرتان في سورة الأنعام، والثالثة في سورة الرحمن. وثمرة الرمان قد يصل قطرها إلى١٨ سم ويصل وزنها إلى٦٠٠ جرام، تحتوي على٤٠٠ ـ٥٠٠ بذرة، وتحاط البذرة بطبقة خارجية(الطبقة الخارجية من القصرة) وهي التي تؤكل لاحتوائها على عصير حلو المذاق يتركب من٨٥% ماء مذابا فيه نسبة من السكريات، وكميات زهيدة من الدسم، والفيتامينات من مثل فيتامين ج، والأحماض من مثل حمض الليمون والبوريك، بالإضافة إلى آثار من عناصر البوتاسيوم، الكلور، الكالسيوم، المغنيسيوم، الفوسفور، الحديد، النحاس، الكبريت.
وعصير الرمان له خواص هاضمة بالنسبة للدهون على وجه الخصوص، وقشر الرمان له خاصية قابضة، قاتلة لديدان الأمعاء، ومعينة على امتصاص الحديد وغيره من العناصر وله قدرة هائلة على معالجة قروح الاضطجاع التي تحدث عند قعيدي الفراش.

وهكذا نرى أنه في كلمات محددة جاء هذا التسلسل المعجز من الحب المتراكب إلى ثمار كل من النخل والأعناب والزيتون والرمان ليجمع كل أنواع الغذاء الأساسي للإنسان ولأنعامه، وذلك لأن باقي النباتات الراقية المعروفة لنا إما تنتج فاكهة وخضراوات من كماليات الطعام، أو هي نباتات الزينة، أو الظل، أو الأخشاب، أو الأعشاب وهي " على أهميتها " ليست من الضروريات الملحة لحياة الإنسان وأنعامه.
ويأتي الوصف القرآني لتلك النباتات بالتعبير المعجز مشتبها وغير متشابه ليعبر عن حقيقة التنوع الهائل الذي وهبه الله(تعالى) لتلك النباتات، حيث ينقسم كل جنس من أجناسها إلى العديد من الأنواع، وتنقسم الأنواع إلى العديد من الأصناف، ويضم كل صنف من هذه الأصناف بلايين البلايين من الأفراد التي تكاثرت ولا تزال تتكاثر وسوف تظل كذلك إلى أن يرث الله(تعالى) الأرض ومن عليها. وأفراد كل نوع من أنواع النبات تبدو في ظاهرها متشابهة، ولكن بدراستها المتخصصة يتضح ما بينها من الفرق بما يستوجب فضلها عن بعضها البعض، وهنا تتضح روعة التعبير القرآني(مشتبها وغير متشابه).

ويأتي بعد ذلك تنبيه من الله الخالق بالنظر إلى ثمار النباتات وقت إثمارها وحين نضجها(انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه)، وفي هذا النص سبق علمي أصيل يشير إلى ضرورة الاعتماد على مشاهدة الشكل الخارجي لمختلف أجزاء النبات في جميع أطوار نموه حتى يمكن التعرف عليه وتصنيفه، وهي من القواعد الأساسية اليوم في علم النبات، وفي النص أيضا إشارة إلى فضل الله العظيم في إنتاج تلك الثمار وإلى أهميتها لحياة النبات نفسه ولحياة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كل من الإنسان والحيوان آكل العشب. وذلك لأن الثمرة الحقيقية هي مبيض الزهرة بعد تمام إخصابه بحبوب اللقاح وتكون الجنين الذي يحاط بأغلفة نباتية من المواد الغذائية لحمايته قبل الإنبات، ولتغذيته في مراحل الإنبات الأولى حتى تورق النبتة الأوراق الخضراء القادرة على القيام بعملية التمثيل الضوئي وإعداد الغذاء الخاص للنبات. وعلى ذلك فالثمار مهمة لجميع النباتات العليا لاحتوائها على البذور التي بها يمكن للنبات أن يستمر في الوجود والتكاثر على الأرض إلى أن يشاء الله(تعالى).
والثمار مهمة للإنسان لأنها تمثل غذاءه الرئيسي وعلف أنعامه، كما تمثل مصدرا أساسيا من مصادر الدواء، والكساء ومواد الصباغة، وغيرها من الصناعات الأساسية في حياة الناس.

وثمار النباتات من أجل نعم الله على الإنسان، وتحركها من بدء ظهورها على النبات إلى نضجها، وما يعتريها خلال تلك الفترة من نمو في الحجم، واختلاف في اللون، وتدرج في الطعم والمذاق بما يشهد لله الخالق بطلاقة القدرة على الخلق والإفناء والبعث، ولذلك ختمت الآية الكريمة بقول الحق(تبارك وتعالى):
إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون.
هذا السبق القرآني يعرض قدرا من حقائق عالم النبات قبل أن يصل إليها علم الإنسان بقرون متطاولة بما يشهد للقرآن الكريم أنه لا يمكن أن يكون صناعة بشرية بل هو كلام الله الخالق الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله ليكون للعالمين نذيرا، فصلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين، والحمد لله رب العالمين حمدا كثيرا على نعمة الإسلام، وعلى نعمة القرآن وعلى نعمة الثمار وغيرها من الأرزاق.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com